

احمد الصافى النجفى و حبسياته

رمضان رضائى

استاذ مساعد فى جامعة آزاد الاسلاميه بتبريز

تاريخ دريافت: ١٣٩٠/٥/٣

تاريخ پذيرش: ١٣٩٠/٥/٢٠

الملخص

أحمد الصافى النجفى شاعر عراقي منضال ولد فى العراق. يُعدّ الشاعر بسيرته الشعرية والنضالية قيمة تراثية تستحق التأمل والانبهار فى كل حين. كانت حياته متفردة بنضاله وغربته وسقمه وعذابه وتشرده، وحبسياته و بسحر كلماته المنطوية على باطن عميق قد يخالف و يتجاوز فى الآن ذاته، الكثير من الشعراء الفحول، قديماً وحديثاً.

كان شعر النجفى وليدة حياته و فى شعره نظرات انسانية و اجتماعية و سياسية و وصف للواقع. قد اعتقل لأجل مواضعه السياسية ضد الاستعمار عام ١٩٤١ و الحرب قائمة على قدم و ساق بين الحفاء و المحور. و لقد تحدث عن مرارة السجن و عن واقع السجن و عن علة حبسه.

روى الصافى فى هذا الشعر قصة نفسه و ما عرض فى هذه الايام التى قضاها بين الجدران الموحشة رواية واقعية تتشعق فيها الحقائق بسربال الخيال. تدور حبسياته على السبب الأصيل لدخول الشاعر السجن و هنا يدرك الشاعر أنّ مُشكلته من مُشكلة قومه، و بعضها تتعلق بحياته فى السجن ثم بسجنه فى المستشفى بعد مرضه. و قد عالج هذا المقال حيات الشاعر مع دراسة فى حبسياته.

الكلمات الدليلية: احمد الصافى النجفى، شعر السجن، شعر العراقى المعاصر.

التمهيد

لم يكن الحديث عن موضوع الظلم و الاستبداد مقصوراً على الشعراء الذين سجنوا فى عصر المعاصر، بل كان موضوعاً عاماً تناوله معظم الشعراء الذين شهدوا هذا العصر. أما الذين سُجنوا فكان وقع الظلم عليهم شديداً إلى الحدّ الذى جعل معاناتهم تفوق أىّ معاناة.

واجهت أدب العراقي المعاصر التطورات الرئيسية لأجل شعرائها العظيم و ادبائها المثقف كاحمد الصافي النجفي. تغيّر بعضهم شكل الشعر العربي و بعض آخر جددوا في موضوعات الشعر و بدأوا في الابتكار. أما الصافي في هذا المجال ذهب في طريق آخر و هي حسياته التي لا مثيل له في نوعه في أدب العراقي المعاصر، وربما ترجع المسألة الى عيشة الشاعر. لأن الشاعر كان يعيش بين الناس ويفهم آلامهم. الهدف الرئيسي من هذه المقالة استعراض طريقة الشاعر في حسياته. سيتم استعراض أولاً مع عرض سيرة موجزة للشاعر، ثم تحليل مجموعة من القصائد التي اعتقل الشاعر من اجلها.

نبذة عن مولده و نشأته

ولد أحمد في النجف سنة ١٨٩٦، و توفي والده بوباء الهيضة و عمر صبيّنا ١١ سنة، فكفله أخوه الأكبر محمدرضا. (بصرى، مير، ١٩٩٤، ج ١ ص ١٧١) قال أمين الريحاني في كتابه «قلب العراق» إن هذا الشعر رأى نور الشمس «يوم كان الحسن الخلقى و الصحة و النعمة تنزه كلها في الكون الأعلى، فما رمقته بنظرة ساعة الولادة و لا دنت بعد ذلك من ملعبه أو من رحله أو من كوخه ... انه لطير غريب يحسن الطيران و الغناء و لا يحسن سواهما...» (الريحاني، امين، ١٩٨٨، ص ٢٦٢). و لما بلغ الخامسة من عمره أدخل الكتاب، فتعلّم القرآن و الخطّ و شيئاً من الحساب. و قد قال في ترجمة مخطوطة لنفسه كتبها سنة ١٩٣٦: «و ما كدت اتجاوز العقد الأول من عمرى حتى نكبت بفقد والدى بمرض الوباء الذى اجتاح العراق يومئذٍ و ترك فى كل دار مناحة، و لاسيما فى بلدة النجف. و قد كانت الصدمة شديدة على نفسى، و ما زلت حتى اليوم أتمثل ذكراها الفظيعة و حوادثها المؤلمة، و لا أنفكّ حتى اليوم أشعر بهولها. فكفلنى أخى الأكبر، و كان بالرغم من عطفه علىّ، قاسياً فى معاملتى، ضاغطاً علىّ حرّيتى، مقيداً لى تقبيداً يكاد يكون استعباداً أو استعماراً!...». (بصرى، مير، المصدر نفسه، ص ١٧١)

و كان منذ الطفولة ضعيف البنية، ميالاً إلى الكسل و التأمل، فلم يحتمل مواصلة الدرس الذى زاد فى مرضه العصبى. و قد قال الصافي:

أسير بجسم مشبه جسم ميّت كأنى إذا أمشى به حامل نعشى

(بصرى، مير، المصدر نفسه، ص ١٧١)

و في سنة ١٩١٦ ترك الصافي النجفي و ذهب إلى المحمّرة (خرمّشهر) في ايران، فخلع البزة الدينية و ارتدى لباس العمّال و شرع يبحث عن عمل حتى وصل إلى بندر بوشهر المرفأ الفارسي، و كانت رحى الحرب إذ ذاك دائرة بين القبائل الفارسية و الانكليزية بتحريض القائد الالماني «وسموس» الذي كان قبل الحرب قنصل الحكومة الالمانية في شيراز. قال الصافي: فلم أتمكن من الوصول إلى قرب بوشهر إلا بمشقة تعرّضت أثناءها إلى الغرق في الخليج الفارسي، لولا صندوق شاي كان معنا في الزورق، فطفأ على سطح الماء و تعلقت به فكان سبب إنقاذي. (بصري، مير، المصدر نفسه، ص ١٧١)

أصيب الصافي في بندر عباس بالتيفوئيد «و بعد إبلالي من المرض سافرت إلى بندر عباس، و منها قفلت راجعاً إلى النجف الأشرف بعد مفارقتها تسعة أشهر، كانت خلالها قد انقطعت أخباري عن أهلي. و قبل وصولي إلى النجف بشهرين كانت بغداد قد سقطت بيد الجيش الانكليزي ...». (بصري، مير، المصدر نفسه، ص ١٧٢)

بدأ الصافي بنظم الشعر. و قد سمع بأنباء ثورة الحجاز التي رفع لواءها الشريف حسين، فكانت باكورة نظمه قصيدتين في مدح الشريف و تحية الأمة العربية الثائرة. ثم شارك في الثورة الوطنيّة التي شبّ أوارها سنة ١٩٢٠، فسجن اخوه الأكبر محمدرضا الصافي، وهبّيء لشاعرنا أن فرّ إلى طهران عن طريق الكوت و جبل حلوان.

عكف الصافي على دراسة اللغة الفارسية و عمل مدرساً للأدب العربي في المدارس الثانوية. و ترك التدريس بعد سنتين، و اشتغل بالترجمة و التحرير في امّهات صحف طهران كجريدة «شفق سرخ» و غيرها. و أكبّ على مطالعة الادب الفارسي، فقرأ المثنوى ديوان جلال الدين الرومي و رباعيات الخيام و دواوين حافظ و المنوجهرى و سعدى و الشعر المعاصر. و تعرّف بشعراء ايران أمثال بهار ملك الشعراء و حيدر على كمالى و جلال الممالك و عارف القزوينى و الشاعر عشقى الذى ذهب ضحية قصيدة حمل فيها على رضا شاه بهلوى. و اختير بعد ذلك عضواً في النادي الأدبى، و قام بترجمة رباعيات الخيام، و لم ينقطع في تلك الاثناء عن مطالعة الادب العربي قديمه و حديثه. (الحاج مخلف، شاکر، بدون تاريخ، ص ١٤)

لقد هبّيء للصافي أن يتغلّب على جميع تلك الأمراض، و قد أناف على السبعين. و عاش متنقلاً بين ربوع سورية و لبنان. و لما احتلّ الانكليز بيروت في خلال الحرب العالمية

الثانية اعتقلوه و أودعوه السجن (١٩٤١)، فلبث في غيابه شهراً و نصف شهر، و خرج منه بديوان شعر أسماه «حصاد السجن». (الخياط، جلال و آخرون، ١٣٨٥، ص ٤٤)

يُعدّ الشاعر أحمد الصافي النجفي بسيرته الشعرية والنضالية قيمة تراثية تستحق التأمل والانبهار في كل حين. ولا أدعى أنني سأقوم في هذه السطور باستعادة هذه القيمة، بقدر ما أنوى معانقتها عبر إشارات وامضة، تعبّر عن تقديري وابتهاجي بإيقاع حياته المتفردة بنضالها وغربتها وسقمها وعذابها وتشردها، وحبسياتها و بسحر كلماته المنطوية على باطن عميق قد يخالف ويتجاوز، في الآن ذاته، الكثير من الشعراء الفحول، قديماً وحديثاً.

للصافي مظهر ينفر وجوهر يحير كان دائماً يظهر بمظهر واحد لا يتغير في أيامه و لياليه. كوفية عراقية بالية، و جلباب مهترئ رديم، ونعل بال قديم (برهومي، خليل، ١٩٩٣، ص ١٤) يبدو أن الشاعر رغم نأيه عن مجالسة أصحاب الأدب وصخبهم كان مترعاً بالنضال. لقد نذر نفسه لمقارعة المستعمرين منذ سنواته البكر. فهو من الممهدين لثورة العشرين في العراق بحيث كان بيته، في مدينة النجف الأشرف مسقط رأسه، مقراً للنضال ومأوى للمناضلين يلهب فيهم ويؤجج سنا الثورة شعراً وفعالاً. وبعد أفول الثورة نصبت له الأعواد لشنقه، فأدركه الخبر، فعاش حياة التجوال والاعتراب؛ يفر من مدينة لأخرى، ومن بلد لآخر. فصارت حياته سفيراً في سفر، يعاقر المرض والفقر ويمجها شعراً انطوى على كل تيمات الشعر وموتيفات الأدب والفن عبر أسلوب تجلّى به الشكل وعانق من خلاله المضمون الذي يعده بعضهم سبباً وما هو بذلك. إنّها الحداثة المسافرة بلا انقطاع في الزمان والمكان العربيين.

لقد كان الصافي مطارداً من الإنجليز، فحط الرحال، بعد طول غياب، في أرض لبنان، ليناصب الفرنسيين العداء الذين قرروا إبعاد صوته الذي كان يتسلل إليهم من بين الأصوات كفورة دم ولمعة نجم في سماء لا تكدرها الغيوم.

قيمة شعره

كان شعر النجفي وليدة حياته و في شعره نظرات انسانية و اجتماعية و وصف للواقع و فلسفة عملية تلتقى و فلسفته المثالية، و إذا كان مظهره و سلوكه الخارجي قد أسبغا على حياته بعض الشذوذ و الطرافة. فإن شعره يستمد طرافته من تفرد أفكاره و جدتها، و حسن تناوله الموضوع الذي يطرقه، و صدق تأملاته و موضوعيتها و تركيزه الشديد على شدّ

القارئ باختيار الموضوعات التي يعالجها. نراه بتأملاته يصنف البشر إلى ملاك و شيطان إذ يقول:

عجبتُ للناسِ يُدعى كلُّهم بشراً
هذا يرقُّ لذي بؤس فيطعمُهُ
و ذا ملاكٌ و ذا ييدو كشيطانِ
و ذاكَ يسلبُ خبزَ البائسِ العانيِ
مُوذٍ فيسكُنني إحسانُ إنسانِ
إحسانُ ذلكَ تكفيراً عن الثانيِ
حتى حسبتُ و فعلُ الناسِ مختلفٌ

(الصافي النجفي، الاعمال الكاملة، ص ١٤٦)

و النجفي شاعر مجدد، لكن تجديده يفترق عن تجديد معاصريه، فهو يستعين في فنه بمادة لغوية واضحة و سهلة و دقيقة، و أسلوب لفظي تقليدي لكنه مجدد في أفكاره يجهد كثيراً في صوغ الفكرة لتأتي طريفة ممتعة و لا يطيل قصائده، و إنما يقدمها على صورة مقطوعات شعرية وجيزة، و سهلة ممتعة تسحر القارئ، و ليس نهجه الشعري هذا غريباً عن أدبنا، فقد ألف الشعراء العرب هذا النهج و جعلوه من بعض شعرهم أقوالاً سائرة محكمة النسيج، و جيزة القول، حتى كأن كل مقطوعة منها هي زبدة قصيدة طويلة، تعد من الشوارد التي تجمع في مختارات الأدب. و من أشعاره مقطوعة جميلة يخاطب بها «القنبلة الذرية» التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية ضد اليابان عام ١٩٤٥ م، في مدينتي هيروشيما و ناكازاكي و يضع علاجاً لمأساة البشرية بفكر سام:

يا ذرةً لبناءِ الكونِ ناسفةً
هل تستطيعين نسفَ الحرصِ و الطمعِ
قد انفجرتِ فزلزلتِ الوجودَ بنا
هلاً انفجرتِ لنا في رأسِ مخترعِ
فكُّ الكهاربِ من دنياكِ محكمةً
أخفُّ من فكِّ ما في النفسِ من جشعِ
يا ذرةَ العقلِ في دنيا الوري انفجرتِ
و حطمتِ عالمَ الأوهامِ و البدعِ
هذي قيامتنا الصغرى قد ابتدأت
فهل قيامتنا الكبرى على التبعِ
عجبتُ للعقلِ من سرِّ الإلهِ دنا
و الخلقُ مازال خلقَ النمرِ و الضبعِ

و نفر من الروح المادية لعصرنا، فعبر عن نفوره قائلاً:

أنا و العصرُ قد تعاكستُ سيراً
فكأنني أعيشُ في عصرِ نوحِ

أنا أسمو في عالم الروح دوماً
و من طرافة تأملاته قوله في اللانهاية أيضاً:
سعداً الضير فليس دون خياله
أبداً حدوداً جمّة و قيوداً

أما حسن التناول فلعل النجفي من أبرز شعراء عصرنا قدرة على اخراج شعره و تخليصه من الضعف و تنقيحه ليجيء معبراً بكفاية عن الفكرة التي يتناولها. يقول مفتخراً بنضاله و نضال أخيه:

سجنت و قلبى فى العلا يجنو أخى
و آمل فى العلياء أن يسجنوا الأبناء
إذا لم نورث تاج مجدٍ و سؤددٍ
لأبنائنا طراً نورثهم سجنا
(الصافى النجفي، حصاد السجن، ١٩٨٣، ٩٥)

و البيتان من أفضل ما قيل أو يقال فى الفخر، على بساطة التراكيب فهما و وضوح الصوغ، و عمق الفكرة، حسب آراء بعض النقاد.

لم يكن النجفي ضيق الأفق، فلم يقتصر شعره شأن كثير من شعراء العصر على موضوعات محدودة لا يتعداها، بل كان الكون كله مسرحاً لتجاربه الشعرية و فى ذلك دليل على اقتداره، و غنى مخيلته، و تمكنه الشعرى، فقد شملت موضوعاته الوصف و الحكمة و الإنسانية و الاجتماعات و النقد و الفكاهة، فهو فى الوصف مبدع دقيق الملاحظة، يقول فى وصف ضفدعة:

مغنيتى فى الليل ضفدعة جذلى
من الماء فى فيها اصطفت و تراً لها
تغبُّ الطلى ماء فتغدو به ثملى
فتعزف لحناً بالمياه قد ابتلا

و هو قليل الإختفاء بالصور البيانية فى وصفه و حكمه، مقتصد فيها إلى أبعد الحدود، لأنه يؤمن أن الشعر فكرة قبل أن يكون صنعة، لكنه يجرى أحياناً وراء الفكرة، و يهمل عناصر الفن الأخرى حتى يقع فى عيوب النثرية، و لكن من المفيد هنا أن نذكر ما قال عنه الأديب الكبير عباس محمود العقاد أنه أشهر شعراء العربية و كتب عنه مخطوطاً يقول فى أثنائه: «لا يكفى أن يدرس الصافى أديباً واحداً، بل يجب أن يدرسه مائة أديب لسعة آفاقه الشعرية».

الصافي و حصاده السجن

إن قراءة التاريخ العراقي الحديث، خصوصاً في مطلع هذا القرن و حتى نهاية الخمسينات منه، تظهر عدم استقراره سياسياً و اجتماعياً فمن جهة فإنه قد خضع للاستعمار الإنجليزي، و من جهة ثانية فإن هذا الاستعمار لم يترك البلاد إلا و قد ربطها بمعاهدات و موثيق تكفل تبعيتها له. هذه التبعية التي عانى منها العراقيون، خصوصاً في الأربعينات و الخمسينات من هذا القرن. (سعيد، امين، ١٩٨٠، ص ١٣٨)

و لنا في ترجمات الشعراء المسجونين خير دليل على ذلك. فالشاعر النجفي إشتراك في ثورات ١٩١٧ و ١٩١٨ و ١٩٢٠ العراقية ضد الإنكليز، فلوحق و اعتقل و نفى إلى إيران مدة سبع سنوات بوقفه هذا الموقف (عباس الصالحى، خضر، ١٩٧٠، ص ١٧). كما أنه سجن من قبل هؤلاء في بيروت سنة ١٩٤١. و كان شعره يعكس هذه الملاحظات و الاعتقالات، كما يعكس الروح الوطنية التي تحلّى بها منذ ديوانه الأول «الأمواج» و حتى أشعاره الأخيرة. و في هذا العام كان دَيْدُنُهُ التحريض السياسي و الضغط على المتنفيين، خصوصاً الحكام. ففي قصيدته «أين الحرس» يهاجم الشاعر الذين نصبوا نفوسهم حرساً على الشعب لكن في عهدتهم ضاع الوطن و مات الحق و كثر الطامعون في البلاد و سرقوا أعلى ما فيها من مجد و خيرات و كنوز. و يوجّه رسالة إلى المستر كراين، المبعوث البريطاني إلى العراق، يبلغه فيها موقف حكومة إنكلترا من الحقّ العربي و كيف أنها و عدت بالاستقلال بعد الحرب الأولى ثم خنثت بوعداها، يبين فيها صدق العرب و رياء الإنكليز. كما يهاجم التابعين لهؤلاء من الحكام العراقيين، و هؤلاء تسلّموا السلطة بعد الأربعينات أمثال صالح جبر و نوري السعيد، كانت لهم مُواقِعَاتٌ عديدة مع الشعراء العراقيين المعاصرين أمثال السياب و الحيدري و البياتي و سعدى يوسف ... و من المعروف أن السياب قد سجن لمرات على أيدي هؤلاء الحكام، و كان شعره مليئاً بالخطاب السياسي الذي يفصح عن الأوضاع العامة في العراق. و كانت هذه الأوضاع نوعاً من الغليان تجسّد في المظاهرات و الإضرابات التي كان أبرزها في العام ١٩٤٨ احتجاجاً على معاهدة «بورتسمورت» التي عقدت بين بريطانيا و العراق في العام ١٩٣٠، و طالب الشعب بإلغائها. لكن ذلك لم يكن بالأمر اليسير، فقد كلف العراق الكثير من الضحايا التي نالت من الشعب سواء أكان منظماً في أحزاب أم غير منظم. (بلاطة، عيسى، ١٩٧١، ص ٥٠)

كان الصافي شريداً من كيد حكام الجور الضالعين في ركاب الاستعمار لرفضه وجود المحتلين الأجانب لبلاده فاضطر إلى مغادرة العراق إلى إيران ملتحقاً بصديقه عباس الخليل الذي وصلها قبله هارباً بعد ثورة العشرين التي قادها علماء الطائفة الشيعية ضد الاحتلال البريطاني حفاظاً على نفسيهما من بطش السلطة. كما اضطر إلى مغادرة العراق ثانية و الذهاب إلى سوريا سنة ١٩٣٠ م، و في منتصف الأربعينات استقر في بيروت، كان الصافي يكره الإنجليز كثيراً بسبب جرائمهم في العراق و الدول العربية حيث يقول:

أحارب جيش الإنجليز لأنتي	وقفت على نصر الحقيقة مخدمى
أحاربهم حربى لكل رذيلة	إلى كل شيطان إلى كل أرقم
أخاف إذا ماتوا تموت أبا ليس	فأبقى بلا لعنى لهم نصف مسلم
تحاربهم روحى وكفى و منطقى	و إن هم نووا قتلى يحاربهم دمي

(الصافي النجفي، الاعمال الكاملة، ص ٨٧)

الصافي يحاول جهده أن يستنهض العرب مذكراً إياهم بماضيهم التليد القائم على البطولات و العزة و الإباء، و خصائصهم المتأصلة في شخصيتهم الآيلة إلى رفض الظلم و الذل و الخنوع، و الحائّة إياهم على الدوام، ليكونوا أحراراً يرفضون الضيم و يحافظون على ميراثهم ... و في معظم الأحيان يدفع العرب إلى اتخاذ موقف مناهض للاستعمار بوجوهه كافة، محرّضاً إياهم على وجوب الاستيقاظ و دفع الأذى بالردّ على المفتتتين على كرامتهم و أرضهم و تاريخهم كما فعل الشاعر. و هذا أدى إلى اعتقال الصافي بل اعتقاله السلطات الحليفة التي دخلت سوريا و لبنان بعد عهد الفرنسيين «الفيشيين». فأما التهمة الرسمية التي كان بها اعتقاله فإنها شبهة النازية. و هذا غير متصور من الصافي لسبب افكاره و آرائه الاجتماعية و السياسية و لكنّ سلوك بعض الدول الديمقراطية، طوال الفترة بين الحربين العالميتين: الاولى و الثانية، جعل عسيراً على كثير من الوطنيين ان يبصروا النازية على حقيقتها نكسة استعمارية و حشية تنزل بأهل الارض جملة و بالحضارة عامة و بالشعوب المستضعفة خاصة؛ نكسة استعمارية و حشية كتب عليها التاريخ الفناء كما كتبه على كل استعمار. فاذا سمعت الشاعر يُنشد اذن في ديوانه مثل هذا الشعر:

سجنت و كم في السجن مثلى من حرّ	يقابلنا السجنان بالنظر الشزر
و اشرفت من سجنى على البحر قائلاً	من البحر يأتينا الخلاص او «البحرى»

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ٩٣)

و دليل ذلك أنه يعلق على ذلك بان «الاستاذ يونس البحري كان ينعش آمال القوميين العرب باذاعاته عن برلين» فلا يغرنك هذا الدليل الشكلي على «نازيه الصافي» و لا تخل انك لمست لمس اليد «الحقيقة التي تثبت الجرم»، بل فتعمق مزعوماً كان من ردّ فعله مثل هذا الشعر و هذا المعنى.

و تبرز قضية الاستعمار في شعر السجون العربي أساساً مهماً من أسس الصراع الدائر بين الإنسان و تملكه وطنه. فالشاعر يحتمل الأذى، بصنوفه المختلفة، طوعاً لأنه يقدر الثمن الذي سيدفعه من أجل إعادة امتلاك مقدرات بلاده، و توجيهها و التصرف بها بما يخدم الشعب.

و موضوع الاستعمار بارز في هذا الشعر. إن الاقتراب من هذه القضية يجعل منها منحنى خاصاً عرفه شعراء السجون في قصائدهم، خصوصاً عند الحديث عن السلطات المحلية الحاكمة و علاقتها بالاستعمارات المختلفة، فكانت سبباً أساسياً للوقوف في وجه الطموحات الشعبية التي كان هذا الشعر معبراً عن جوانب كثيرة منها.

فالشاعر في ديوانه «حصاد السجن»، يعبر عن هذه الناحية تعبيراً مباشراً، يربط به بين الأهداف الاستعمارية في البلاد العربية و بين السلطات المحلية التي يشكل موقفها من الحركات الوطنية و الشعبية اشتقاقاً من المواقف التي تلائم سياسة الاستعمار. و كما اشرفنا كان «النجفي من الذين اشتركوا في الثورات العراقية المتوالية التي حصلت في الربع الأول من هذا القرن ضد الإنكليز. و لقد جرّ عليه اشتراكه هذا مزيداً من النفي و التشردّ و الإبعاد من أراضى وطنه سنين طويلة.» (المعوش، سالم، ١٩٨٠، ص ٢٥) و كان الإنجليز لا يزالون يلاحقونه. و في أثر اشتراكه في تظاهرة شعبية عارمة سارت في شوارع بيروت، ألقى القبض عليه من قبل السلطات الفرنسية و سجن لمدة شهرين في بيروت في العام ١٩٤١. و في معرض هجائه للإنكليز و من يتبعهم من أهل بلاده يقول مفتخراً بسجنه.

فتقدم في الديوان حصاد السجن - أو الدؤوبين الذي يحلولى تصغيره حباً و استلطافاً - تجد الشاعر و قد اشتدت وطأة الحرب في الجولة الأولى على المستعمرين العريقين فلوحوا بالحرية للشعوب المستضعفة، و منها نحن، كيف يروعه هذا النفاق نفاق الاستعمار العجوز في أزمته فينشد:

حرر الانكليز مستعمرات حين باتت على شفا الاخطار

كلما فرّ من يـد الطفل طير
منحونا حرية حين مُدّت

قال اطلقته لوجه الباري
نحو أعناقهم يد الجزائر

(الصافي النجفي، المصدر نفسه، ص ١٣٤)

و الشاعر إذ يقف هذا الموقف الوطني، يعي أبعاد القضية، فالإنكليز دخلوا البلاد العربية بحجة تأمين طريق الهند، وها هم أولاء يبقون في هذه البلاد و لا يتراجعون عن احتلالهم الهند، فإذا خطتهم واضحة جليّة، يسعون إلى فرض سيطرتهم على أكبر مساحة ممكنة من أراضي الشعوب المستضعفة. و ما ذلك إلا ليوهموا الشعوب المستعمرة أنهم أتوا ليحرروها، لكنّ هذه الشعوب تأبى هذه الحرية الكاذبة المصطنعة، و تعلم أبعاد الأهداف الاستعمارية، فلا تتأخر عن مقاومتها و إنهاء وجودها الاستعماري، و إنكلترا إذ تعلم ذلك تتظاهر بمنح الشعوب حريتها.

روى الصافي في هذا الشعر قصة نفسه و ما عرض في هذه الايام الثلاثة و الأربعين التي قضاها بين الجدران الموحشة رواية واقعية تتشخّح فيها الحقائق بسرّيات الخيال و يمكن تقسيمها على قصرها - ثلاثة فصول: يدور اولها على السبب الأصيل لدخول الشاعر السجن و هنا يدرك الشاعران مُشكلاته من مُشكلة قومه، و يتعلق ثاني فصولها بحياته في السجن ثم بسجنه في المستشفى بعد مرضه؛ و أما ثالثها فأبيات ارسلها في وداع السجن. (خوري، رنيف، مقدمة حصاد السجن، ص ٦٨).

و في خلال ذلك كله تنتشر عبقرية الشاعر لتلمّ بكل شيء مما يعاني حوله أو مما يتمرس به في جسمه و نفسه أو مما يتصل بدواعي نزوله هذه الغيابات. فيصف غرفته الواطئة السقف التي «تحب في الضيف القصر» و يفتخر بسجنه إذ «يقضى فيه حق اقوامه» و يعمل على تكسير اصنام المستعمرين و يصف زملاءه في هذا القبر ثم مرضه و نقله الى المستشفى و ذلك الشرطي الذي نُصب حارساً عليه «كأنه اعلان على بابه»، و يصور ثقل هذا الليل الذي يهبط عليه مرهقاً موحشاً بين الجدران الاربعة، المنضمة عليه كطوق الحصار. و انه لمن الدعوى الخائبة ان نحاول سكب الجمال الذي تفيض به خواطر هذا الديوان و صورته في سطور من نثر. فالشعر اذا فك نظامه سقط موضع التعجب منه. بل لا يُغنى استشهدنا ببعض ابياته مهما لطفت وراعت فان الايامضة الخاطفة لا تقوم مقام التأمل العميق و الامتلاء الطويل. و لكن وجد لنا العذر من قال: ما لا يدرك كله لا يترك جله، فنحن

دالون إذاً على خصائص المتعة و اسرار الفتنة في هذا الديوان، و رأسها تلك الروح الفكاهة، التي تشعُّ في اجزائه فتبدّد من وحشة الجو الذي يصوره الشاعر. لا اعنى ان عنصر الألم مفقود في هذا الشعر فإنه ينفخ المآ و يلفح غضباً لظلامه الشاعر و ظلامه قومه و استبداد المستعمرين. على ان الصافي مسح على ذلك كله بالفكاهة و السخرية، و لن نجد كالفكاهة و السخرية علامة من علائم عافية الروح و تحدى الاضطهاد و الجور.

الشاعر يشرح لنا حكاية هذه المفاوضات التي يصح ان نسميها «مفاوضات الدول الاربع» في سبيل الافراج عنه:

فرنسا لفكى فلم تسطع	حكومة لبنان قد راجعت
تراجعهم، جلّ من مرجع	و راحت فرنسا الى الانكليز
و لليوم بالأمر لم يصدع	و قد راجع الانكليز العراق
و يا ايها الخلق قولوا معي	فقلت: اعجبوا ايها السامعون،
خطيراً على دول اربع؟	امن قوتي صرت ام ضعفهم

(الصافي النجفي، المصدر نفسه، ص ٩١)

و كان سبب اعتقال الشاعر مواضعه ضد الاستعمار و عندما سجن الشاعر سعت حكومة لبنان لفكّ هذا القبض و سخر الشاعر على الدول الاربع فهذا من اوجع السخر الذي انطوى على الجد، و ناهيك بالاستفهام التهكمي الذي يقبل مفاجئاً في خاتمة الأبيات! ثم قوله:

رمونا كالبضائع في سجون	و عافونا و لم يبدوا اكثرانا
رمونا في السجون بلا ااث	فاصبحنا لسجنهم أثاثا!

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ١٠١)

و هذا ايضاً من بديع التخيل الفكاهة الذي يأخذ الظالمين بقهقهة موجهة لتكديسهم البشر في سجونهم كأنهم ااث لها لا لحمٌ و دمٌ يحس و يعقل. و يعجبني من فكاهة الشاعر و سخريته قوله:

حسبت لطول السجن اني في قبر:	فان يخرجوني منه آمنت بالحشر
-----------------------------	-----------------------------

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ١٠٣)

فهذا الايمان بالحشر لهذه المناسبة ظريف حقاً، و اظرف ما فيه انه يسوقه على سبيل «اغراء» من سجنوه بأن يطلقوا سراحه، و هكذا تراه يعبث بهم هذا العبث الرائع.

و المتعة الثانية التي نجدها في هذا الديوان دقة الوصف و غرابة التخيل. نأخذ مثلاً قصيدته «غرفة ام صندوق»، و نتأمل ذلك التصوير الباهر للغرفة الضيقة و سقفها الهابط. ثم تأمل ذلك التصوير «للشنتة» بعد ما بث فيها حياة من حياته فهي تنطق ... تسأله متى السفر: و هي تشكو له كربتها و تبكى بعين دمعها مستتر و تهيج الغبار التي فقدت عيناها البصر و اصبحت لا تبصر:

تبكى بعين حالها و دمعها قد استتر
كادت من الغباران تفقد عيناها البصر

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ١٢٥)

ثم نأخذ مثلاً آخر على دقة الوصف و غرابة التخيل قصيدة «ألواح و أشباح» أو «ملحمه السجن» كما سماها أو «معلقة السجون». و الواقع انك اذ تبلغ هذه المعلقة فقد حططت الرحل عند أبداع تحف الديوان و عند أروع تمثيل و ابلغ مناجاة حادت بهما عبقرية شاعر عربي الليل في السجن، و للسجن في الليل! و غبن ان اجتريء لك من هذه القصيدة البيت و البيتين فان من حقها ان تقرأ كاملة، ثم تعاد قراءتها مرة و مرة ليتهيأ هذا الجو الصحيح من عمق التجاوب بينك و بينها؛ هذا الجو الذي يستحيل من دونه ان ينصف القارئ شعراً أو شاعراً. (خوري، رنيف، مقدمة حصاد السجن، ص ٧٥)

و بعد ... فكثيرة هي المتع و الفتن التي نجدها في هذا الديوان: متع معنوية و فتن عبارية، و هنا اوصيك ان لا تغرك البساطة في اكثر نظم هذا الديوان فان من البساطة ما يكون هو السهل الممتنع و هو السحر المحير. و الصافي اشعر شعراً من ان يزيّف نظمه لدى عينيك بالزخرف كما يزيّف الخرز البراق بدعوى انه الجوهر. يقول الصافي:

ألبيست أشعاري لباسي ساذجاً كي لا اخادع باللباس الرائي
لم استطع سبق الوري بزخارف فسبقتهم ببساطتي الحسنة!

فاننا لنجد في هذا الديوان قبساً من قوة النفس و وميضاً من تحدى الاضطهاد و عزفاً حمساً حاراً في تمجيد التضحية على مذبح الحرية، و لن تجد ذلك كله مجتمعاً لك عند شاعر واحد من شعراء السجون في ادب العربي قديمه و حديثه.

و هنا لا بد من التنويه بهذا النقص لا تزال تحس الشاعر فرداً ليس إلا، و ان هو ادرك ان مشكلته من مشكلة قومه. تحسه فرداً يألم، و فرداً يغضب، و فرداً يسخر، و فرداً يبعث، و

قلَّ أن تتراعى لك من أمامه أو ورائه، أو عن جانبيه أخيلة من شعب تتحرك... .
فالصافي ما برح في هذا الشعر تغلب عليه الغنائية الفردية. على ان لهذه الغنائية الفردية
روعيتها و منفعتها ايضاً. فالقوت الروحي الذي يغذى فرداً ليتقوى به على بجابهة الظلم جدير
كذلك بأن يغذى شعباً.

فإلى جنود الحرية في مشارق الناطقين بالضاد، الى اولئك الذين طالتهم او تطولهم ايدي
الظلم و الاستعمار بالسجن و الاضطهاد. هذا الديوان تقديم لما يستطيعون أن يستمدوا منه
من عافية و قوة.

مرارة السجن و همومه

لقد تحدث الشعراء الذين ذاقوا مرارة السجن عن واقع السجن، فكانت حقيقته لديهم انه
محنة و بلاء، و ان هناك مفارقة كبيرة بين العالم الخارجي و الحبس، و وصفوا أثره الهادم
في النفس، و ما يعترى السجين أول دخوله من انقباض و رهبة، ثم يتدرج في الاعتياد على
تلك البيئة الجديدة مع المحافظة على الاصاله النفسية التي يتمتع بها. و نرى أن الصافي
يصف غرفته في قطعة تحت عنوان «غرفة السجن» و يقول:

سجنوني في غرفة قد تعرّت	فكأني سجت وسط القفار
جاعلاً من ترابها لي فراشاً	و غطاء يلفني من غبار
ثم زادوا على الغبار غطاءً	من نسيج مضعع منهّار
فاذا نمت يكتسى منه وجهي	بغريب الأصواف و الأوبار
فتراني في الصبح امضغ شعراً	و تراباً برغم حلقى سار
فكأني أكلت نصف فراشي	و كأني شربت نصف دثاري
و كأني و الصوف كلل وجهي	نوعٌ وحشٍ ما مر بالافكار!

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ٨٣)

و لقد كثرت صرخات الضجر و الانهيار عند الشعراء المساجين، نظراً للواقع المرير الذي
كانوا يعيشون فيه، و لم تكن تلك الصرخات إلا إنعكاساً للأوضاع النفسية التي كانوا
يعانونها، مما دفع ببعضهم إلى المجازفة بحياتهم، بعد نفاذ صبرهم و قدرتهم على احتمال هذا

الواقع. اما الصافي في كثير من الاحيان يظهر مقاومته ضد السلطة و لا يظهر ضجره و ألمه بل يصبر على كل هذا لأن حبسه كان للدفاع عن القوم.
 هذا الأدب تصریح للسراع النفسى لما تبدت النهاية المرهبة، فمن السجناء من اعتراه شعور الراغب بايقاف الزمن و تجميده حتى لا يتقدم به إلى الساعة المرتقبة. و لا نهاية مرهبة لشاعرنا المناضل لأن النضال هو الهدف النهائية.
 باح الشعراء السجون بهمومهم و آلامهم في الأيام القاسية، و بخاصة في ظلام الليل، فالسكينة تسمح للذات الداخلية بأن تستيقظ، و اكوامن المشاعر أن تبرز، فيبيت السجين تحت هجمتين من عذاب الجسد، و أحزان القلب معاً، و يقضى ليله في هذا اللبوس النفسى و نهاره في لبوس آخر و يصبح نهاره ليلاً من عبوس السجن و ليله الف ليل تميل آماله القومية بعض الاحيان الى الغروب:

و ليل الف ليل من كروبي	نهارى من عبوس السجن ليلٌ
ارى نفسى تميل الى الغروب	اذا مالت ذكاء الى غروب
فأدخل فى ظلام من غيوب	افتش فى ظلامى عن رجاء
فأعثر منه بالسهم المصيب	و ابحت فيه عن حدس مصيب
و ليتك ضعت فى اقصى الدروب	الا يا ليل ليتك لم تسا
و ليتك قد دعوت بلا مجيب	و ليتك قد عثرت بلا مُقيل

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ١٤٥)

و يواجه الشاعر، أحيانا في حديثه عن همومه، ذاته و قد تعرّت من الكذب و الادعاء، فلم يكتفم الوهن الذى تملك نفسه فى عزلته، و لم يستطع أن يخنق شجونته التى كانت تززع نفسه و تستدر دموعه. و لهذا اصبحت السجن امرّ من الموت:

اقمت فى السجن، و يا	بئس السجنون من مقر
فى غرفة واطئة	تحب فى الضيف القصر...
و جارُ ضبّ هذه	ام قبر جن محتفر
كم رُمت منها ان أفر	و هل من القبر مفر
فهى سواء و الوردى	و روذها بلا صدر

دار انتحار هذه كم امل فيها انتحر
 قد مرّ لي شهر بها كان من الموت أمرّ

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ١٢٠)

و من الشعراء من يضعف و ينهار أمام تلك المحنة، فللسجن أثر كبير في تحطيم العنقوان و الجلد، و أمام ذاك الواقع لا يجد الشاعر مناصاً من البكاء فيفرج بذلك عن نفسه، و لا يكتنم الوهن الذي تملك نفسه في عزلته، فيعبر عن ذلك في شعره. أما الصافي مرض في السجن و ضاق به السجن و يأمل أن المرض ينقذه من شرّ السجن و تنتهي المحنة:

ضاق بي السجن فقلت هل مرض ينقذني من شر سجن قد أمضُ
 لا غرو إن يهو السجين مرضاً فمن رأى الموت حلاله المرض

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ٨٥)

هذا شيء مما كان من أمر الشجون التي كانت تززع نفس السجين و تستدر دموعه، و إلى جانب ذلك كان هناك من يتحمل و يصبر، و هناك من يرجع إلى الله و يتوب. اما الصافي يتحمل و يصبر و يجعل السجن قبراً حفروه للشاعر. أما الشاعر لن يرجع عن مواضعه السياسية.

سجنوني في غرفة قد تعالت و اطلت على فسيح الفضاء
 هي سجن و ان تعالت، فسجني قفص لى معلق في الهواء
 قبري السجن صار، و القبر قبر حفروه في الارض او في السماء!

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ٨٧)

نسنتج من قراءة هذا الشعر، أن الشعراء الذين عايشوا تجربة السجن و الأسر، كانوا يعايشون أحزانهم و أفراحهم، و ما كان ينتابهم من عذاب نفسي، و بخاصة أثناء الليل حيث لا جليس و لا سمير، و لا ضوضاء و لا حركة، فيجلس الشاعر إلى ذاته و تستيقظ في داخله جميع أحاسيسه و مشاعره، و ما يقاسيه من عذاب و ألم، و كأنه كان في غفلة عن ذلك، كأنه قفص عليه و كأن تلك الهموم و الآلام دخلت عليه فجأة، فيبدأ صراعه مع نفسه و صراعه مع جسده. و يطول الصراع و يطول الأرق و السهر، و يطول الليل، و يتعذر عليه النوم، و يترقب طلوع الفجر، فهو يريد الخلاص من تلك الهواجس، و من تلك الهموم التي احتشدت عليه، فالظلام يزيد من غمّه، و النور يفرّج عن همه.

اليأس و الأمل

ينقطع السجين عن العالم الخارجى، و ينطوى على أحزانه، فتتوالد عنده الهموم و الآلام، و الحنين و الأشواق، و تترجح نفسه بين الأمل و الرجاء، و بين القنوط و اليأس فيبث ذلك فى شعره معبراً عما يجيش فى نفسه من جوانب عاطفية.

حديث السجناء عن الصبر كثير فى ثنايا نتاجهم الأدبى، و هو حديث الانسان المعذب و ردود فعله فى وجه الملمات الفادحة، و ما لديه من الاحتمال و القدرة على المقاومة، و هذا يتفاوت عند الناس، فمنهم من جبل على القوة و التمرد، و منهم من جُبل على الضعف و الهوان.

يتعرض الشاعر السجين إلى موجات عاطفية تجعله يعيش فى أجواء ملؤها الرجاء و الأمل، ثم لا يلبث أن يتعرض إلى و مضات قائمة تجعله يعيش فى جو من السأم و اليأس، لذلك نجده يخرج من يأس إلى أمل و من أمل إلى يأس. و الصافى يأمل أن يطلق سراحه كما يطلق كل السجناء سراحهم:

خلا السجن هذا اليوم من كل ساكن
فجاء غلام السجن يبدي تعجباً
سواى، كَأنى منه أسُّ بناءٍ
و يبغى من السجن كشفَ بلائى

(الصافى النجفى، حصاد السجن، ص ١١٩)

يقبع السجين فى زاوية من الحبس، يقَلب الاغلال و الكبول التى تثقل كاهله، يقضى ليله أرقاً ساهداً، لا وليف و لأنيس، فتتدافع فيه الانفعالات النفسية و العاطفية، و يخترق خياله جدران السجن السميقة، و أبوابه الموصدة، إلى مراتع صائى، إلى الأهل و الأحبة، إلى ذلك العالم الغنى بالذكريات، القادر على إثارة العواطف المستكنة. فلا ترى عين الشاعر السجين المشوق، بقعة تضاهى دياره بهاء، فيبوح عفويماً بما تختلج به نفسه من شعور و عواطف و حنين إلى الأرض و الأهل و الخلان و الأحبة.

و تلك الخلاصة، أو الحكمة، أو العبرة، يمكن أن تكون ناتجة عن ممارسات و تجارب، ذاتية، و يمكن أن يستنتج الانسان عبراً و حكمة من تجارب الآخرين و تلك العبر يمكن أن تكون درساً مفيداً للمتأمل نفسه، و يمكن أن تكون عبراً هادفة لها طابع الشمول و العموم.

يترك السجن - إذا طال - على نفسية السجين ظلاً من الضيق و الكآبة و اليأس،

فيستسلم إلى مصيره، و يتوجه إلى الله يلتمس العزاء و المغفرة، و هذا الواقع يدفع الكثيرين من شعراء السجن إلى التأمل في سيرتهم و في الاحداث التي عاشوها، و الانتهاء إلى استنتاجات و نظرات هي خلاصة آرائهم، و نتيجة تأملانهم.

السلطة الحاكمة

السَّجَان هو ممثل السلطة في السجن، و علاقته مباشرة بالسجين، و يبدو أنه كان له هيمنة مرعبة على المحبوس، تلك الهيمنة نلمس أثرها من خلال أدب السجون، حيث أن معظم الشعراء المساجين تحدثوا عن السَّجَان الذي هم غرض مهم من أغراض أدبهم. يبدو أن العلاقة بين السجين و السجن غالباً ما كانت سيئة، و السبب أن السبجان هو الذي كان يقوم بعملية تعذيب السجين و التضيق عليه، فينتج عن ذلك علاقة عدا، و يمتلئ قلب السجين حقداً.

إن منظر السبجان يثير الرعب في نفوس المسجونين، و في كل مرة يفتح فيها باب السجن ترتعد فرائص كل سجين من الخوف، و ذلك لأنهم تعودوا أن يفتح باب السجن لا استدعاء أحد المساجين و ذلك للقتل أو للتعذيب.

و قال له كل المساجين سُرحوا ففيم نرى هذا رهيناً ثواء
فقال له السجنان هذا الذي ترى أبونا، فأورى شعلةً بدماي
فقلت على رغم المروءة و العلى اكون أبا السجّان و السجّناء!

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ١١٩)

العلاقة بالسلطة هي من أهم أغراض أدب السجون، و لكل شاعر موقف خاص من السلطة التي به في السجن، و تتضافر في بناء هذا الموقف عدة مؤثرات، منها ما طبع عليه الشاعر من صفات نفسية و عاطفية و خلقية و غيرها، و منها ما انطوى عليه السلطان من نوازع و قيم، و منها مستوى الذنب الذي أخذ به الشاعر.

حبست و لم اعلم بذنبي فاصبحت لى الأرض في ضيق و ضاق بى الأفق
ولما علمت الذنب خدمة موطنى حلا السجن في عيني و طاب لى الشفق

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ١١٦)

و تتفاعل تلك المؤثرات لدى الشعراء، فينتج عنها إما اعتذار إلى السلطان و التماس عفو كريم ممهداً له بالاستعطاف، و إما الاستغاثة تحت تأثير الهلع و الخوف، و إما العتاب و الدفاع عن قضيته و المطالبة بالحرية. و يتعرض الشاعر أحياناً إلى ومضات نفسية مختلفة فيسلك تلك السبل جميعها من استعطاف و استغاثة و عتاب. أما شاعرنا نهج غير هذا المنهج و لم يعتذر إلى أي سلطان لأن طريقه طريق الحرية و من يطالب الحرية يحسن الآلام و المحن إليه. و هو يرى يوم سجنه احسن ايامه و هو يحارب قوماً أهل أجراء:

اهلاً بسجني لشهر او لأعوام	فأنا يوماً سجني تاج ايامي
قضيتُ حراً، حقوق النفس كاملة	و اليوم في السجن اقضى حق اقوامي
ان يسجنوني فجرمي يا له شرفاً	أني احارب قوماً اهل إجرام
محمد كسر الأصنام شامخة	من لى بتكسير «الوردات» كأصنام
يكفيهم حطة أن ليس يتبعهم	من سوى كل منحط و نام
يا دولة يتساوى في نذالته	جنديها القدم في مندوبها السامي

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ٨٢)

و النجفي يمزج بين اللهو و الجد في كثير من شعره، و ها هو ذا يسخر من المشاورات التي كان يجربها الإنكليز و الفرنسيون و الحكومة اللبنانية و العراقية لنقله إلى مستشفى السجن بعد اشتداد المرض عليه.

نستنتج من هذا أن الشاعر يفتخر بسجنه في هذا المجال و يفاخر ايضاً على أن اهله كانوا من الاحرار و هم سجنوا من قبل و يكون هذا افتخاراً لأجيال التالية و يعيد إلى أخصامه نفس المعايير و التهمة. نهب أموال الأمة العربية من اهم تلك التهم.

سجنت و قبلي في العلي سجنوا أخي	و أمل في العلياء ان يسجنوا الأبناء
اذا لم نورث تاج مجد و سؤدد	لأبنائنا طراً نورثهم سجننا

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ٩٥)

يشير الناظم الى سجن اخيه المرحوم السيد محمد رضا الصافي في ثورة العراق الاولى سنة ١٩١٩ تلك الثورة التي انتهت بتتويج فيصل الاول ملكاً على العراق. و قد فر الناظم آنذاك مع صديقه المرحوم معالي سعد صالح رئيس حزب الاحرار حتى بلغا حدود ايران فاتجه المرحوم سعد صالح الى العمارة و منها ذهب الى الكويت ثم عاد الى العراق اما

الناظم فقد ذهب الى ايران و اقام في طهران مدة ثمانى سنوات و بعد وصوله الى طهران علم باعتقال السلطات الانكليزية لأخيه و بعد ان قضى اخوه في السجن خمسة اشهر، و قد وضع الانكليز المشنقة امامه تهديداً له لأنه جعل بيته مركزاً لمؤامرات الثورة، اطلقوا سراحه. و قد نظم خمسة أبيات في السجن يخاطب بها احد الزعماء و قد زاره فيه. و بعد خروجه ارسل الابيات الخمسة الى اخيه ناظم هذا الديوان و طلب منه تخميسها فخمسها في حينها و اعادها اليه فنشرها في مجلة «لغة العرب».

اعلان الحرب

برأى الشاعر خسئت انكلترا حين دخلت في العراق و فى الواقع أنها حفرت قبرها بيدها لأن الشعب العراقى يعارضها فى هذا:

خسئت انكلترا، و الله	أعمى مقلتيها
قبرها فى كل ارض	حفرت بيديها
سجنتنى دون ذنب	غير لعنى ابويها
أمنت حربى، و سجنى	يعلن الحرب عليها

(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ١١٢)

من هذا كله تبدو أهمية الحرية فى الحياة العامة. فمن دونها يبقى الشعب أسيراً مكبلاً ... و هى ضالة المؤمن فى عصر البناء و التحديث و التقدم و النهوض ... و لا ريب فى أن موضوع الحرية كان فى طليعة اهتمامات شعر السجون، و المحور الرئيس الذى دار حوله. و كيف لا تكون الحرية كذلك، و هى النقيض الطبيعى للتحكم و الاستبداد و الاستعباد و السجن. فالذى يستعشر خطورة هذا النقيض يعى أبعاد تضحياته، و الحياة من غير حرية لا معنى لها، و من افتقدها افتقد نفسه. و ما أكثر شعر الحرية فى أدب عصر النهضة، و ما أكثر تردده على لسان الشعراء المسجونين أو الذين تحدّثوا عن السجن و المساجين. من أجل ذلك فإن لهذا الموضوع علاقة بالموضوعات كلّها، و بخاصة تلك التى التزمت جانب المقاومة للمحتل و المستعمر و المستبد و الظالم ... حتى يكاد أن يكون المدار الرئيس لهذا الشعر. و إننا لواجدون المزيد منه يتغنّى به الشاعر، بأتمته و وطنه و يرسم لها الأمانى و يتحدث عن أحوالها و يحثّها كي تتحرر و تتخذ مكانها الطبيعى تحت الشمس.

كان الصافي يعلم دليل حبسه و لكن يطرح استفهاما سخريا في هذا المجال و يقول علام الحبس؟ هل أنا سرقت شيئا ام ارتكبت خطأ؟ بل جاء دني باع عز بلادى و أراد أن يشتريه بالنزر الخسيس. و أنى حاربتها و اعلنت لها الحرب و كان هدفي خدمة لبلادى و لهذا سجنت و سجنى افتخار لى.

الى غرفة ظلماء محكمة السد
و لا آثم عمداً و لا دون ما عمد
ليشترى النزر الخسيس من الرفد
سواداً على قلب، سواداً على جلد
كصل أتى من فوهة الحجر الصلد
على أذن تستقبل السم كالشهد
خدمت بلادى؛ قلت و يحك من وغد
و ملكتنى عرش الفجار بلا قصد
بتاج العلى يزهو و قد عشت ستجدى
حلا السجن حتى خلته جنة الخلد
(الصافي النجفي، حصاد السجن، ص ١١١)

حبست و ضاق الحبس بى حين زُج بى
فقلت علام الحبس؟ لا انا سارق
فجاء دنى باع عز بلاده
أتى لا بساً تحت السواد من الدجى
جرى مسرعاً ينساب نحوى مباحثاً
وراح يصب السم من فيه ناقعاً
مضى شارحاً ذنبى، اذا الذنب أننى
فإنك قد ألبستنى تاج سؤدد
فيا لك من نذل كريم تجود لى
و لما رأيت الذنب خدمة موطنى

و هذا ما حصده من الحبسيات للصافي من خلال حصاده للسجن من خلال حيات الشاعر و سائر اشعاره. و تكون هذه الحبسيات من ارووع ما قيل فيها على رغم قلة مدة حبس الشاعر.

أصيب الصافي فى أحداث لبنان برصاصات فنقل إلى بغداد فى ١٩ شباط ١٩٧٦ حيث عولج. و كتب إلى جعفر الخليلي يقول إنه لم ينقطع عن زيارة الشاعر منذ أن جيء به إلى بغداد ليقضى دور النقاهة بعد استخراج الرصاصة من صدره. ثم قال: و العجيب أنه شفى تماماً من هذه الاصابة الخطرة ثم مات بمرض الشيخوخة الذى لا علاج له. و كانت وفاته فى بغداد فى ١٧ حزيران ١٩٧٧.

نتائج البحث

عالج شعر السجون فى عصر المعاصر موضوع الظلم و الاستبداد، و كان ينقل صوراً عن

وقائع المظالم و فصولاً عن الاستبداد الذى مارسه المستعمرون على الناس عموماً و على الشعراء و المفكرين و الأدباء .. خصوصاً. و كانت وجهتهم العمل على تحريك الأوضاع العامة باتجاه التحرر و الاستفادة من الثورات العالمية و توظيف طروحاتها لخدمة الصالح العام. و لقد شكّلوا نقيضاً طبيعياً للظلم و أربابه و قدّموا اقتراحات لإصلاح الأحوال العامة لذلك كان التشدد عليهم و ملاحقتهم و إنزال العقاب بهم ظلماً ينال من الروح و الجسد ليحرمهم نعمتى التفكير الحرّ و الجسد السليم، و لا يميّز المجرم و الجانى و اللص من الأديب و الشاعر و المفكر ... و هو ظلم اجتماعى و سياسى و فكرى فى آن، يُنزَل بالمنورّ الصالح الذى يجترىء على الانتقاد و التحريض السياسيين اللذين حملا فى جوهرهما دعوات للإصلاح على المستويات كافة، و المواجهة و الصمود و الفدائى و الافتخار بالعرب و الثورة و محاربة المستعمر بأنواعه المختلفة ... كما تضمّن تقريباً و لوماً للعرب، و وصف مهانتهم و تقاعسهم عن القيام بواجبهم الوطنى و القومى و الإنسانى، و تذكيراً بماضيهم التليد و تمسّكهم بعاداتهم الآيلة لرفض الظلم ... و ذلك كلّه لدفعهم إلى اتخاذ موقف مما يجرى. و قد اقترن ذلك كلّه بالحديث عن الحرية و أهميتها فى حياة الشعوب. و لم يفصل شعر السجون بين المجتمع و السياسة بل كانا وجهين لقضية واحدة مؤادها العمل من أجل الثورة على الأوضاع القائمة. و كان من الطبيعى أن يكون العقاب لهؤلاء بسجنهم. لذلك كان الحديث عن السجن مسهباً. و صفوه، و تحدّثوا عن حياتهم فيه و عن تأثيره فيهم و المعاملة التى لقوها... .

وقف هذا الشاعر فى النقيض الآخر للسلطات الحاكمة التى كانت سبباً فى مآس كثيرة، جرّت على الوطن وبالأشدّيداً لا تزال البلاد تعاني منه إلى يومنا هذا. و قد ظهر فى شعر الصافى ميل إلى الإصلاح و دعوة إلى الحرية و الوطنية و القومية .. و كانت الموضوعات التى عالجهما قسمين: واحداً موضوعياً و آخر ذاتياً، و من الطبيعى أن يكون الشاعر مشطوراً إلى هذين الشطرين اللذين توحدوا فى أحيان كثيرة ليشكّلا المعاناة التى نالت من صاحبها روحاً و جسداً.

المصادر

- برهومي، خليل، ١٩٩٣، أحمد الصافي النجفي شاعر الغربة والألم، دارالكتب العلمية، بيروت.
- بصرى، مير، ١٩٩٤، اعلام الادب فى العراق الحديث، تقديم جليل العطييه، دارالحكمه، ط. الاولى. بي.جا.
- بلاطة، عيسى، ١٩٧١، بدر شاعر السياب: حياته و شعره، دارالنهار للنشر، بيروت.
- الحاج مخلف، شاكرا، لا تاريخ، شعراء من العراق، مراسته اوروك، الولايات المتحدة الامريكية.
- الخياط، جلال و آخرون، ١٣٨٥، تاريخ ادبيات معاصر عرب، محمود فضيلت (مترجم)، كرامانشاه.
- الريحاني، امين، ١٩٨٨، قلب العراق (رحلات و تاريخ)، دارالجيل، ط. الرابعه، بيروت.
- سعيد، امين، ١٩٨٠، ثورات العرب فى القرن العشرين، دارالهلال، القاهرة.
- عباس الصالحى، خضر، ١٩٨٠، شاعرية الصافي، مطبعة المعارف، بغداد.
- الصافي النجفي، احمد، ١٩٨٣، حصاد السجن، مكتبة المعارف، بيروت.
- _____، ١٩٨٣، هواجس، ط. الثالثه، مكتبة المعارف، بيروت.
- _____، ١٩٨٣، اللفحات، ط. الثالثه، مكتبة المعارف، بيروت.
- _____، ١٩٨٣، اشعة اللونه، ط. الرابعه، مكتبة المعارف، بيروت.
- المعوش، سالم، ١٩٨٠، احمد الصافي النجفي حياته و شعره، رسالة ماجستير فى اللغة العربية و آدابها فى الجامعة اللبنانية.